خمس ملاحظات فلسطينية
حول الحملة الأمريكية على أفغانستان

ملاحظتنا الأولى عن نشر صور وأسماء المدعوين إرهابيين.

هل في بلادنا من يصدق العبارة التي يرددها الزعماء الغربيون وعلى رأسهم جورج بوش وتوني بلير، قائلين إن عدوهم في حملة الأساطيل البحرية والجوية الجارية هو الإرهاب وليس الدين ولا الحضارة ولا الأقطار ولا الشعوب الإسلامية أو العربية؟

أعتقد أن كل مسلم وكل عربي ممن شاهدوا مجموعة الصور الاثنتين والعشرين المنشورة عبر العالم بوصفها مجسدة الإرهاب، لم يملك إلا أن يتساءل: أليس في هذه الدنيا رموز للإرهاب غير هؤلاء الذين يرتدون عمائمهم أو كوفياتهم وعقلهم؟ أليس ثمة إرهابيون ينطبق عليهم وصف الإرهاب في القارات الخمس، ويرتدون القبعات والبرانيط مثلا؟ أين المافيات التي تحكم أحياء بكاملها من المدن الأمريكية الكبرى؟ وأين القتلة المأجورون المحترفون؟ وأين رجالات الدول وقادة الجيوش وعملاء المخابرات الذين يستعملون ضد حركات التحرر ترسانات أسلحتهم ووحداتهم الخاصة المدربة على القتل؟ وأين يتسحاك شامير الذي اغتال اللورد موين في القاهرة والكونت برنادوت في القدس؟ وأين آريئيل شارون صانع المذابح وناسف البيوت على رؤوس أصحابها؟ أليس ذلك كله إرهابا؟ ألا أحد منهم يستحق أن تضاف صورته إلى هذه المجموعة ولو من باب رفع العتب، لكي يقال على الأقل إن الدولة الأمريكية تستهدف الإرهاب أينما كان وكيفما كان ولا تستهدف أصحاب ديانة أو قومية دون غيرهم!؟

هذه الملاحظة شديدة الأهمية. فهنالك أمور فنية شكلية في مجال النشر والتصوير تنطوي على مغزى وأثر نفسي مقصود لا يجهله العارفون. ومن تلك الأمور الارتباط بين الزي وبين الإيحاء المطلوب. وعندما تنشر أمريكا هذه القائمة من الصور ومن الأسماء العربية، في أول تجسيد ملموس للإشارات الشفوية السابقة التي رددت طوال شهر كامل إن الإرهابيين هم أناس شرق أوسطيون، دون إفصاح عن هوياتهم، فإن الأثر الذي ينطبع في نفوس الكبار والأطفال في جميع البلدان، ناهيك عن الولايات المتحدة، هو الكراهية والعداء حيال القوم الذين يلبسون هذه الأزياء، وحيال المنطقة التي أطلعتهم والشعوب التي ترتدي مثل ما يرتدون، وأيضا حيال الجاليات التي تحمل أسماء كأسمائهم أو ملامح كملامحهم، أي أن توجيه الكراهية والتربص والعنف لن يقتصر على العرب والمسلمين في الشرق البعيد، بل سيلحق بالجاليات العربية والإسلامية، التي تتصدى في المعتاد للدعايات الصهيونية الموجهة إلى جمهور البلاد.

هوليوود وحرب الصور

هكذا صار الإرهاب ملخصا ومجسدا في العرب والمسلمين. وفي هذا تركيز مقصود من قبل الخبراء المتعمقين الذين لا تفوتهم في الولايات المتحدة المعرفة الكاملة بما يدعى (سيكولوجية متلقي الصور). على أنه ليس على كل حال، إلا إضافة جديدة إلى النشر والتصوير المعادي للعرب والمسلمين في أمريكا، والجاري على قدم وساق طوال ثلاثين سنة مضت، قدمت هوليوود والسينما الأمريكية أثناءها مئات وربما آلاف الأفلام والمسلسلات التي تصور العربي والمسلم في الصور التي يكرهها المشاهدون: فهو تاجر مخدرات وأسلحة، وهو

همجي ماكر خبيث متعطش للدماء، وهو ثري دون استحقاق ومبذر نهم حين ينفق على طعامه وشرابه وفرجه، وخسيس بخيل في ما عدا ذلك، وهو يحتقر المرأة وإن كان يعبد الجنس، وهو قذر لا يستخدم الماء والصابون، وهو متطفل على الحضارة مخرب للمنشآت الحضارية.. إلى آخر ما رسم الخبراء الصهيونيون الذين يكمنون داخل الشركات والمؤسسات الإعلامية الكبرى في أمريكا والغرب.

لقد كتب مؤلفون غربيون لدى انهيار الشيوعية وكتلتها الشرقية، في أوائل العقد الأخير من القرن الماضي، كتبا تقول إن الإسلام هو العدو القادم للحضارة الغربية. وإن الصراع التالي سيكون صراع الغرب مع الإسلام. وتزايدت إثر ذلك زيادة فاحشة الأعمال الدعائية الصهيونية في الولايات المتحدة لجعل هذه الفرضية الفكرية بمثابة عقيدة ثابتة في أوساط دوائر الاحتراف السياسي والحزبي في الولايات المتحدة، مع أن المؤلفات التي دارت حول هذه الفرضية الذهنية لا تعدو أن تكون واحدة من الافتراضات والتخيلات الفكرية.

وتستعين ماكينة الدعاية الصهيونية على تثبيت هذه (العقيدة) بجميع الوسائل، بما فيها تنبؤات المنجم الأسطوري الغابر نوستراداموس الذي تنبأ بغزو عارم من الشرق للغرب. وذلك بغرض دفع الأمريكيين لمحاربة المعركة التي يشتهيها الإسرائيليون ولا يقدرون عليها بأنفسهم. فإمكانيات أمريكا أقدر على محاربة جميع أعداء إسرائيل دفعة واحدة. ولذلك كان تجنيد أمريكا لهذه الغاية حلما صهيونيا قديما. ويجب أن نعترف أن ذلك الحلم يتحقق الآن بشكل لا يكاد أصحابه الإسرائيليون يصدقون أنه يحدث حقا.

ملاحظتنا الثانية: عن ضرب القوى الآسيوية الإسلامية ومحاصرة الصين.

ما نقوله لا يعني أن الولايات المتحدة لا تملك أسبابها الخاصة للصراع في المنطقة. ومن الخطأ أن ننسى تلك الأسباب. فهي تريد قبل كل شيء نهب آخر نقطة نفط في آخر بئر في آخر احتياطي نفطي في آخر بلد عربي أو إسلامي نفطي. وهي لا تريد أن تتوفر لأية دولة في المنطقة قوة تحملها على تحدي السيطرة الأجنبية التامة التي تجعل استمرار هذا النهب في حكم القدر.

وتفصيل ذلك أن هذه السيطرة ترمي من ناحية إلى استيلاء الأمريكيين على نفط دولنا الضعيفة بالأسعار التي يحددونها، وبوتيرة الإنتاج التي تناسب سياساتهم الاقتصادية، وبالسيطرة المطلقة التي تتيح لهم أن يوزعوا الأنصبة النفطية على الدول الصناعية القوية فتظل رقابها في أيديهم. فهم بالتالي ضد وحدة بلدان المنطقة، وضد تزودها بالسلاح المؤثر في هذا العصر، وضد منظمة الأوبيك والأوابيك، وضد أية امتيازات تنقيب أو سواه تعطيها دولة في المنطقة لدولة صناعية غير الولايات المتحدة. وربما كان هذا من الأسباب الرئيسية للسياسة العدائية الأمريكية تجاه العراق الذي تجرأ على إعطاء مثل هذه الامتيازات لفرنسا، وربما لروسيا، على غير رغبة الأمريكيين. ولهذا السبب تختلف مواقف هؤلاء عن الموقف الأمريكي حيال ضرب العراق.

غير أن حدود السياسة الأمريكية لم تتوقف عند هذه الإملاءات. بل شاءت أن تجعل إسرائيل، الدولة المستعارة التي قامت على اغتصاب الأرض المقدسة، بمثابة النائب والوكيل الميداني المعتمد للولايات المتحدة، وتبنت أمريكا جميع المواقف الإسرائيلية الاستفزازية والتوسعية وزودت إسرائيل بجميع عناصر القوة والسيطرة والنفوذ. وصنعت لها قوة عسكرية وترسانة حديثة. وسهرت مع ذلك كله على تحقيق شيء مخالف لطبيعة الأشياء إذ قامت بجهد دؤوب، واستجابت لطلبات إسرائيلية متتالية، كي تبقى إسرائيل في وضع عسكري أقوى من مجموع قوى العالم العربي والإسلامي ذي المليار نسمة ونيف. ومن المشكوك فيه أن يكون ذلك كله ضروريا

للمصالح الأمريكية وحدها. والواقع أنه استفزاز مثير، يولد مشاعر من السخط المتزايد، ويجعل من إسرائيل عالة على المصالح الأمريكية مثلما هي عالة على الخزينة الأمريكية ودافع الضرائب الأمريكي.

وبعد ذلك كله تحارب الولايات المتحدة في منطقتنا الآن حرب إسرائيل الكبرى. وهذه هي النقطة التي وصلنا إليها. وإذا كانت المعركة ستمتد عشرة أعوام أو أكثر كما يقول بوش. وإذا كان العراق وسوريا على قائمة الدول المستهدفة حسب آخر التصريحات الصريحة التي أطلقها وزراء ونواب وزراء أمريكيون، فنحن نضيف لها دون تردد أن الدور قادم على إيران التي تخشى إسرائيل قدراتها العسكرية. والهدف الحقيقي للحملة الأمريكية التي تتذرع بمحاربة الإرهاب هو إعادة رسم خريطة المنطقة على نحو يتناسب مع تفرد الولايات المتحدة بالتفوق العسكري والاقتصادي، وهو القضاء على جميع نظم الحكم التي لا توافق على الامتثال دون مناقشة لما تدعوه أمريكا مصالحها الحيوية.

دول بلا أسنان

وأعتقد أن من الأفكار الإسرائيلية التي استطاع اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة أن يجعلها في حكم العقيدة لدى السياسيين المحترفين هناك، ضرورة تجريد الدول الآسيوية الإسلامية ذات الوزن من القدرات العسكرية التي تقيم لهذه الدول حسابا في عالم الاستراتيجيات، وأعني بها النوعين الثقيلين: أسلحة الدمار الشامل والصواريخ البالستية والموجهة. فمن يتابع الاهتمامات والتصريحات وحركة الدبلوماسية الإسرائيلية خلال الأعوام العشرة الماضية يلاحظ تعاظم هجمة المخطط السياسي الإسرائيلي على الباكستان، لأنها دولة إسلامية نووية. ويجري توظيف النفوذ الإسرائيلي المتغلغل لدى الطوائف الهندية غير الإسلامية من ناحية، والدأب الإسرائيلي على تأجيج نار الخلاف بين الهند والباكستان من ناحية ثانية، والاهتمام الإسرائيلي بالمساعدة العسكرية والسياسية للهند من ناحية ثالثة، لأغراض إضعاف مسلمي الهند وتحجيم الباكستان واستنزافها وتحييد قوتها النووية خشية أن تصبح سندا للفلسطينيين ذات يوم بعيد. ويشجع الأمريكيون هذه السياسات ضد الباكستان بعدما كانت حليفة الأمس، وذلك من زاوية أخرى هدفها محاصرة الصين من غربها عن طريق تقوية الهند. فقد تغيرت معالم السياسة الأمريكية إثر انهيار الاتحاد السوفييتي، وتميزت بروح اقتحامية واضحة في قارة آسيا. وعلى الرغم من أن السياسة الصينية تميل إلى مهادنة الأمريكيين ومسايرتهم وعدم الاحتكاك بمصالحهم، فإن الأمريكيين من ناحيتهم لا يغفلون عن أن الصين ما زالت البلد الوحيد بالإضافة إلى كوبا الذي يحمل العقيدة الشيوعية المضادة للرأسمالية، والبلد الذي يشكل بتعداد سكانه وبنجاحاته التنموية الزراعية والصناعية والعسكرية المنافس المحتمل مستقبلا والعقبة الكؤود المرشحة مستقبلا لمجابهة الهيمنة الأمريكية على أسواق العالم.

كما تتجه جهود الدبلوماسية الإسرائيلية العلنية وعمليات الموساد الخفية في الوقت نفسه، ضد دخول التكنولوجيا النووية الروسية إلى إيران. وقد تزيد هذه الجهود المبذولة في أوساط الحكم في روسيا، والتي ترجمتها الزيارات العديدة لمسؤولين إسرائيليين إلى موسكو، على الجهود المبذولة لضرب المشروع النووي الباكستاني، لأن الحكم في باكستان لم يبلغ من الخطورة في نظر الإسرائيليين خطر الأصولية الحاكمة في إيران. وبسبب هذه الخطورة يتجنب المسؤولون الأمريكيون مؤقتا بالطبع التركيز على إيران وتوجيه التهديدات إليها.

درع مجاني للصين

وينظر الأمريكيون إلى الدول العربية والإسلامية الممتدة من شرق المتوسط إلى غرب الصين على أنها دول

معادية للولايات المتحدة وأنها تشكل استراتيجيا بذلك بالتالي درعا سميكا لخاصرة الصين الغربية. وتتطلع الاستراتيجية السياسية الأمريكية إلى تفتيت هذا الدرع وإلى جعل هذه الدول، إذا أمكن، بمثابة رمح أمريكي موجه نحو تلك الخاصرة. ولم يكن غريبا أن تتهاون روسيا وهي في دور الانهيار في شأن التغلغل الأمريكي في دول الكومنولث الروسي الجنوبية التي هي جزء من أقاليم آسيا الوسطى الأقرب إلى الجنوب. ولكن من أغرب الظواهر السياسية المعاصرة أن تلعب روسيا في عهد بوتين الطامح إلى استعادة مكانة روسيا دور السمسار الذي يسهل صفقة استخدام مطارات تلك الدول وقواعدها لصالح القوات المسلحة الأمريكية. ولا يمكن فهم ذلك إلا بأن الدهاء الروسي يرتب للولايات المتحدة مستنقعا آسنا يستنزف قواها في حرب لا تنتهي، أي أن الروس يسعون من خلال التظاهر بالعون إلى زج الامبراطورية الأمريكية في معترك يؤدي إلى إفقارها وإضعافها وتفكيكها لاحقا كما تفككت الامبراطورية السوفييتية.

وقد يكون هدف روسيا المزدوج هو محاصرة الصين بالقوة الأمريكية وإنهاك الاثنتين معا، وبذلك تعود روسيا للتربع فوق مكانة مرموقة على الساحة العالمية. أضف إلى ذلك توهمها أن إضعاف الأفغان سيؤدي حتما إلى إضعاف الشيشان.

لا يبدو أن المارد الصيني العظيم استشعر هذه المخاطر بما فيه الكفاية. وصحيح أن الصينيين أعلنوا في سياق تأييدهم الحملة الأمريكية ضد الإرهاب عن تحفظهم الذي صاغوه بعبارة (على أن تكون الأهداف التي ستضربها الحملة محدودة وزمنها محدودا)، ولكنهم عمدوا من ناحيتهم للتصرف على نحو غريب على مسلكهم الحصيف المعهود حيال العالم الإسلامي، فقد انتهزوا فرصة بداية الحملة الأمريكية ليعدموا بالجملة عددا من المتهمين المسلمين الصينيين بالعمل للانفصال عن الصين رميا بالرصاص في عاصمة جمهوريتهم، دون أن تخشى السلطات الصينية اتهامها بخرق حقوق الإنسان، مثلما حدث في ربيع بكين. ولم يكن هذا بالأمر الحصيف، ولا كان من الحصافة اقتصار الموقف الصيني من العمليات الحربية الأمريكية بذلك التحفظ الباهت الذي لا يحمل أهمية كبيرة ولا يوحي كما قلنا أن الصين فطنت إلى أهمية الحفاظ على ذلك الدرع الطبيعي الذي لم تتعب في بنائه.فالأمريكيون متى غرزوا أقدامهم حول الصين فلا شيء يمنعهم من البقاء كما يشتهون وتركيب قواعد الصواريخ الثابتة لتطويق الصين تطويقا محكما. والأساطيل الأمريكية التي تجوس خلال المحيط الهندي وتوجه صواريخ كروز تجاه أفغانستان، وكذا القواعد الجوية المستحدثة في الباكستان وفي الجمهوريات الإسلامية التي كانت الحزام الجنوبي للاتحاد السوفييتي، إنما تمثل نوعا من (البروفة) والمناورة ضد الصين.

وربما كان من مصلحة الصين بالتالي أن تصحح موقفها بسلوك يفهم معه الأمريكيون أن المجال الاستراتيجي الحيوي لدولة عظمى مثلها لا يقف عند خط الحدود الدولية لها.

ملاحظتنا الثالثة: لماذا تتصرف السياسة الأمريكية براجماتيا في كل شيء وأصوليا في حالة الإسلام فقط؟

لا يجهل أحد أن السياسة الأمريكية في المنطقة العربية والإسلامية متشددة للغاية ضد القوى الإسلامية التي نهجت نهج العمل السياسي ضمن نطاق الشرعية وشروط (اللعبة الديمقراطية) كما يسمونها. فالسياسة الأمريكية هي صاحبة الانقلاب العسكري على حكومة أربكان وحزب الرفاه، ثم على وجود حزب الفضيلة في الساحة السياسية والنيابية في تركيا. والمخابرات المركزية الأمريكية هي صاحبة الأمر والدعم في الانقلاب الذي نفذته المخابرات الفرنسية ضد الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر.

وكلا التنظيمين تجنب أي نشاط عنيف، وخاض انتخابات شعبية فاز فيها، ثم وقع ضده الانقلاب العسكري. وهذا يثير ملاحظات عديدة تتجاوز الملاحظة العابرة التي تسجلها وقائع الساحة السياسية الدولية، حيث يتزعم الأمريكيون في وقت واحد الدعوة إلى الديمقراطية وحقوق الإنسان بالقول، ويصنعون بفعل السي آي إيه الانقلابات العسكرية ضد الحكومات التي انتخبها الشعب.

ما الذي ينتظر الأمريكيون أن تفعله مثل هذه التيارات الأصيلة في المجتمعات العربية والإسلامية، حين يتبع الأمريكيون المهيمنون على المنطقة سياسة الطريق المسدود أمام إسهام هؤلاء في نطاق الشرعية؟ وما الذي فعله أربكان أو مدني ليستحق الانقلاب عليه وعلى حزبه؟ وما العبرة التي يستنبطها الرأي العام في هذه البلدان من هذا التصرف الأمريكي؟ وإلى أين سيتوجه الشباب المسلم الذي اعتنق هذه العقيدة وقنع بالنهج الديمقراطي طريقا لتجسيدها ثم وجد الطريق مسدودا؟ وكيف يمكن للشعب الذي يجده مسدودا أن يناضل من أجل التقدم والرفاه والرقي؟ أم هل يمكن للإنسان أن يتوقف عن مسعاه من أجل تحسين أوضاعه؟

الجواب بسيط: سيحل العمل السري بدل العلني، والعمل العنيف محل السلمي وسينفتح الباب على مصراعيه لتقود المسيرات الوطنية أشد العناصر الشابة تصلبا وتعصبا وربما دموية أيضا.

لماذا قبلت الذهنية الأمريكية مبدأ التعددية في تركيبة المجتمع الأمريكي وفي ثقافاته وفي دياناته ومذاهبه، ولم تقبل التعددية في الشرق الأوسط الذي تعده مستعمرتها الكبيرة؟ ولماذا لا يثير القلق الأمريكي وجود أحزاب هندوسية أو سيخية في القارة الهندية وأحزاب مسيحية في القارة الأوروبية، بينما يثير وجود أربكان ومدني كل هذا الاستنفار الأمريكي؟

الجواب ليس عند الأمريكيين بالطبع، ولكنه عند اللوبي الصهيوني العامل في أمريكا وفق تعليمات إسرائيل، والذي يوظف الدولة والكونغرس في خدمة إسرائيل.

الملاحظة الرابعة: حول تساؤل جورج بوش في إحدى خطبه الأخيرة عن سبب كراهية الناس لأمريكا مع أن الأمريكيين طيبون؟!

ولا يمكن من وجهة نظر الناس في المنطقة العربية والإسلامية أن يكون هناك أغرب إن لم نقل أغبى من هذا السؤال. ويكفي الأمريكيين ردا عليه أن الولايات المتحدة اعترفت بإسرائيل قبل الإعلان عن قيامها، وأن جميع القذائف والصواريخ والطائرات التي تحمل الموت للعرب والفلسطينيين أمريكية، وأن أمريكا لم تشبع من قتل العراقيين منذ عشر سنوات ولم تتوقف عن نهب نفط المنطقة ولم تكف عن التآمر على محاولات الوحدة العربية منذ خمسين سنة.

الواقع أننا نحن العرب والمسلمين الذين نتساءل دائما: لماذا تكرهنا أمريكا وتناصبنا العداء إلى هذا الحد؟ وإذا كان صحيحا أن العرب والمسلمين غير معجبين بطريقة حياة الغرب والولايات المتحدة فهل يظن الأمريكيون أن طريقة حياتهم نموذج لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

ولو أن الأمريكيين تجردوا من أحادية نظرتهم لسألوا أنفسهم: ما الذي أساء به العرب والمسلمون لنا حتى نجرد حملة صليبية ضدهم؟ وحتى تتواصل الأعمال الحربية الأمريكية منذ عشر سنوات حتى اليوم؟ وحتى يطال التهديد والوعيد دولا كسوريا والعراق؟ أما كفى العالم العربي والإسلامي تقتيلا وتدميرا؟

الملاحظة الخامسة (والأخيرة مؤقتا): إلى أين سينتهي المطاف مع هذا التصلب والتدمير والنار المشتعلة؟

هل يمكن للولايات المتحدة أن تعيد رسم خريطة المنطقة حقا وأن تحرز انتصارا نهائيا حاسما دائما؟

نحن لن نستذكر السنن الكونية التي تقول إن دوام الحال من المحال وإن الأيام دول بين الناس. ولن نحيل على صفحات التاريخ وعلى نظريات النشوء والانهيار التي تثبت أن موت الدول وحياتها مسائل دوارة ما دارت الأرض حول الشمس، ولكننا سنضرب مثالا واحدا من الواقع الحاضر يثبت أن حسم الصراع بالقوة صعب ومنهك وقد لا يصل إلى نتيجة، خاصة في هذا العصر الذي يستطيع فيه مجنون واحد أن يزرع الرعب في قارة بأسرها، نظرا لأن المعرفة والإلمام بفنون القتل وبأسلحة الدمار يصبح أيسر فأيسر مع تقدم العلوم وتوسع (المعلوماتية).

إن كل مجنون ذي خيال واسع يستطيع أن يبتكر وسائل لا تخطر بالبال ولا يمكن إحصاؤها على نحو جامع مانع، يزرع فيها الرعب، إن لم يزرع الدمار في قارة كاملة.

وما لم يجد ذلك المجنون عقلاء يردونه عن مسعاه، لأنهم مؤمنون بإمكان الحوار وإمكان أن يحقق الحوار نتيجة حقيقية، فإن حلقة العنف والجنون لن تغلق.

إذا لم يكن ما حدث في الحادي عشر من أيلول سبتمبر الماضي في نيويورك وواشنطن برهانا على ذلك، فلن تكفي الجمرة الخبيثة ولا غيرها.